بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الله جل جلاله كتب على نفسه الرحمة ، وسبقت رحمته غضبه ، لأنه هو ذاته الرحمن ، وهو نفسه الرحيم ، ومن أعظم وأجل أيادى رحمته عز شأنه ، أنه أنزل القرآن الكريم رحمة للعالمين ، يرحمهم به فى الدنيا وفى الآخرة ، ونورا يهديهم الى الصراط المستقيم ، ففيه الفرقان وفيه البيان ، وفيه الحق وفيه الفصل ، من قال به فقد صدق ، ومن حكم به فقد عدل ، ومن عمل به فقد فاز ، ومن استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ٠

والقرآن الكريم هو كتاب الله الذى لا ريب فيه ، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وذلك لأنه محروس بالقدرة الالهية ومصان بالأمر الربانى ، اذ تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه وتولى رعايته ، فقال وهو أصدق القائلين : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »(١) ، وهكذا فمنذ بداية اللحظة التى نزلت فيها أولى آياته الكريمة ، وعلى مدى هذا التنزيل المبارك ، والى آخر الزمان ، وعين الله تكلؤه وتحميه ، والعناية الربانية تلاحظه وترعاه ، ومنذ وقت مبكر وقف أصحاب رسول الله صلى الله عليه اوسلم بين كاتب للقرآن مدون له ، وبين حافظ له فى صدره ، ولم تقف عقبة أمام الكتاب ، فراحوا يسجلون القرآن على كل ما تصل اليه أيديهم من عسب ولخاف ، أو من أديم ورقاع ، أو على أكتاف أو أضلاع أو أقتاب ، كذلك راح الأميون يحفظونه فى صدورهم ويستأمنون عليهم مهجهم وخفقات أفئدتهم ٠

ويوم قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولبى نداء ربه ، كان القرآن الكريم هو الأمانة الغالية التى تركها فى أعناق الصحابة رضوان الله عليهم، والوديعة الكريمة التى استأمن عليها ضمائرهم وقلوبهم ، فاحتضنوها بصدق وعزم ، وأدوها باخلاص ووفاء ، ولم يضنوا عليها بجهد ، ولم يكترثوا فى سبيلها بعقبة ، فهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقوم بجمع المدونات

---

(١) الحجر/٩ ٠

القرآنية المتفرقة ، فى صحف متتالية خشية الضياع والفقد ، بعد أن استحر القتل بالقراء فى وقعة اليمامة ، وهذا عثمان بن عفان يدرك الأمة ويجمعها كلها على مصحف واحد امام ، عصمة لهم من الفتن ، وحماية للنص القرانى المقدس من التحريف أو التصحيف ، أو اللحن واللبس والخطأ ٠

ثم جاء بعد الصحابة رجال من التابعين من السلف الصالح ، ساروا على المنهج القويم ، وحافظوا على المشعل متقدا ، وأناروا به سبل الأجيال من بعدهم ٠

***

ولقد سار تفسير القرآن الكريم فى طريق طويل ، ربما بدأ ينساب منذ تلك الآونة المبكرة التى بدأ فيها رسول الله (ص) يدعو الناس الى الاسلام، ويوضح لهم تعاليم الدين الجديد ، ويفهمهم ما جاء فيه من أمور ومن معان لم يعهدوا مثلها من قبل ٠

وعلى جانبى هذا الطريق ، وعلى مر العصور والأزمان ، نجدالمصابيح المضيئة الهادية ، التى وضعها أولئك الرجال الذين حملوا على عاتقهم أمانة الفكر وأداء الكلمة ، فقاموا بتفسير القرآن وشرحه وتوضيحه للأجيال ، وتركوا لنا تفسيراتهم ، مصابيح مشعة تنير الطريق وتهدى السبيل ٠

على أن البحث فى التفسير وتاريخه ، أمر من العسر والصعوبةبمكان، فطريق التفسير طريق طويل يوغل فى القدم ما يقرب من ألف وأربعمائة سنة، وليس هو بالطريق المعبد ولا هو بالطريق السهل أو الهين ، اذ لم يكن أولئك المفسرون على درجة واحدة من العلم والاتقان ، كذلك لم يكونوا على قلب رجل واحد من الأمانة والاخلاص والوفاء للدين السمح ، اذ منهم من أصاب ومنهم من أخطأ ، ومنهم من كان خطؤه عن سهو أو نسيان ، ومنهم من كان خطؤه عن جهل ، أو توهم ، ومنهم من تعمد وأصر على اشاعة الفتن والبدع، كيدا للاسلام أو تأييدا لعقيدة يدعو لها أو لحزب ينتصر له ٠٠

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد فحسب ، فلقد ثارت عواصف السنين وأعاصير الزمان ، فحطمت بعض مصابيح الطريق ، وبعضها أطاحت به ، وبعضها دفنته تحت أكوام من رمال القرون ، فليس لدينا الآن من المصابيح ما يكفى لاضاءة الطريق كله ، وخاصـــة أول هذا الطريق ، فلقد ضاعت

التفاسير الأولى ، ولم يعد منها غير بقايا وأخبار ، لا نستطيع الاهتداء اليها أو العثور عليها ، الا بعد أن ننقر فى بطون الكتب الضخمة القديمة . ونمر على السطور سطرا سطرا فى كتب التفسير بالمأثور التى أفلتت من يد العاديات، مثل جامع البيان الطبرى والدر المنثور للسيوطى ، أما الأخبار فهى قليلة بل هى نادرة ، كما يشيع بينها الاضطراب ، ويضرب الغموض حولهـــا أطنانه ، كما أنها للاسف مقدوح فى صحتها ، متهمة بتهمات الوضـــــع والزيف ويلاحقها الشك والريب ٠

وهكذا ، فالطريق بعضه مظلم ، وبعضه فيه الضوء أو بصيص منه ، وبعضه وعر حرج ، وبعضه سهل ممهد ٠

والتفاسير الاسلامية الأولى للقرآن الكريم ، مصابيح ، تنير لنا أول الطريق الحقيقى الذى سارت فيه خطوات علم التفسير القرآنى ، وتجلو لنا علاماته ، وتحدد طوابعه ، وتوضح دروبه التى تشعبت عنه ، كما تبين مصادره وبداياته التى انطلق منها ٠

وقتادة ، هو ابن دعامة بن عزيز السدوسى البصرى الأكمه الضرير ، حافظ علامة ثقة ، وتابعى جليل ، ولد سنة ٦٠ هـ وتوفى سنة ١١٧ هـ ، وقد كان مفسرا للكتاب ، وله تفسير متقدم للقرآن الكريم ، ليست بين أيدينا عنه سوى اشارات غامضة . فقد ضاع هذا التفسير كما ضاعت تفسيرات مبكرة كثيرة ، وانمحى أول طريق التفسير القرآنى ، وضلت خطوطه ، وراحت معالمه واتجاهاته الأساسية ٠

واصبحت دراسة تفسير القرآن الكريم وتاريخ هذا التفسير ، تقوم اساسا على كتاب « جامع البيان عن تأويل القرآن » لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ) ، أى أنها كانت تنطلق منذ منتصف القرن الثانى الهجرى ، ولم تكن لدينا الفكرة الكافية والواضحة عن حياة التفسير واتجاهاته ومناهله وسماته وعلاماته قبل ذلك الحين ، اذ أن غالبية التفاسير التى كانت قد ظهرت قبل الطبرى ، ضاعت فى دوامة السنين ٠

على أن رحمة الله سبحانه وتعالى قيضت لهذه الأمة الاسلامية رجالا جهابذة حفظوا لنا فى مؤلفاتهم العظيمة كثرة كثيرة من هذه الآثار التفسيرية التى فقدتها الأجيال ٠ ومن أهم هذه الكتب الموسوعية تفسير الطبرى وتفسير السيوطى (الدر المنثور) وتفسير ابن كثير وتفسير القرطبى ، وغير ذلك ٠

كما أن هناك أيضا مجموعة كبيرة من الآثار التفسيرية القـــديمة فى كتب السنة والحديث وفى كتب الرجال والطبقات والتراجم وما الى ذلك ٠

وقد حاولت أن أجمع مادة تفسير قتادة من خلال هذه الكتب ، وألم شتاتها المبعثرة ، وأوثقها وأرتبها وأؤلف بينها ، ثم أدرس فى هذا النتاج : خصائصه ومنهجه ، وأسانيده ومصادره ، وقيمته وأثره فى تاريخ التفسير٠٠ لأمهد بذلك الخطى الأولى لدراسة أسس علم التفسير القرآنى دراسة أصيلة قيمة ، تضيف شيئا نافعا للتراث الاسلامى والحضارة الانسانية ٠

وكنت منذ البـــداية مقدرا تماما لصعوبة الموضوع ووعورته ومـدى ما يحتاجه من مشقة وجهد وعناء ونصب ، فان جمع هذا التفسير ولم شتاته المبعثرة والمتناثرة هنا وهناك فى مختلف كتب التفسير والحديث والتاريخ والتراجم ، ليس بالأمر السهل ولا بالأمر الهين الميسر ، وانما بالكد والكدح والتنقير فى بطون الكتب القديمة ، وليس بخاف على أحد ما تتطلبه هذه الكتب القديمة من عناء ومشقة ، بكثرتها وتعددها واختلافها وضخامتهـــا واتساعها وتشعب مناحيها ووفرة ما فيها ٠٠٠ فما بالك اذن بمن يتتبع صفحاتها وينقب بين سطورها سطرا سطرا ، ويقتفى كل كلمة وكل حرف خشية أن تفوته شاردة أو واردة ، باحثـــا عن أثر تفسيرى معين قديم ، أو اشارة تفسيرية عتيقة ٠

أنها تجربة فذة فى تاريخ الدراسات الاسلامية الحديثة ، أن نعمل على احياء التراث الاسلامى التليد ، الذى ضاعت كتبه ومؤلفاته منذ أكثر من ألف عام ، فنجمع شتاتها المتناثرة فى كتب التراث المختلفة المتعـددة ونحققها ونوثقها ، ونرتبها ونؤلف بينها ، ونعيد هـــذا التراث الاسلامى المجيد مرة أخرى الى الحياة والوجود والنور ٠

على أننى استخرت الله فى القيام بهذا العمل ، واعتـمدت عليه ولم يستطع اليأس أن يتسرب الى نفسى ، وتهيأت للعمل ، وذبت فى عملى المضنى قراءة دائمة واطلاعا متصلا فى الكتب الاسلامية والعربية القديمة من تفسير وحديث ورجال وطبقات وتاريخ ولغة وأخبار وشعر ٠٠٠ ودامت هذه الحال من الدأب والعمل المستمر طيلة ثلاثة أعوام ٠٠٠ يعلم الله مدى ما كلفتنى من عنـــاء ونصب ٠٠ ثم مضى عام آخر فى الترتيب والتنسيق والتأليف والكتابة ٠٠٠ وأخيرا استوى البحث قائما على قسمين رئيسيين :

قسم : هو مادة تفسير قتادة نفسها ، مجموعة من كتاب تفسير الطبرى ومصنف عبد الرزاق وموثقة ومحققة التحقيق العلمى السليم ومرتبة ومنظمة حسب آيات وسور القرآن الكريم ، بقدر ما وسعنى الجهد ٠

وقسم آخر : هو الدراسة التى أعددتها حول هذا التفسير ، وتحتوى على ثلاثة فصول :

تحدثت فى الفصل الأول عن حياة قتادة ، فتناولت فيه:نسبه،وقبيلته، وتاريخ مولده وتاريخ وفاته . ونشأته . وحفظه وضبطه ، وعلمه ، وشيوخه ومن روى عنهم ، ومراسيله ، وكيف كان ثقة بالاجماع ، وكيف احتج به أرباب الصحاح . ثم تحدثت عن تلاميذه ومن رووا عنه ، وكذلك آثاره العلمية ٠

ثم تحدثت فى الفصل الثانى عن كتاب تفسير الطبرى ومصنف عبد الرزاق ، وهما المصدران اللذان نهلت منهما الآثار التفسيرية لقتادة ، فدرست منهج كل منهما فى ذكر الروايات وفى ذكر السند ، كما أبرزت مدى مساهمة منهج كل منهما فى ذكر الروايات وفى ذكر السند ثم تحدثت عن الأسانيد الثلاثة التى دار عليها تفسير قتادة ، كما جاءت فى تفسير الطبرى ، واختصاص مصنف عبد الرزاق بالسند الثانى وحده ، ثم درست هذه الأسانيد الثلاثة . وترجمت لرجالها الذين ثبتت عدالتهم ٠

وخرجت من هذا الفصل بأن تفسير قتادة ـ هذا الذى بين أيديكم الآن ـ هو تفسير تتوافر له الثقة . ويحوطه الأمان والاطمئنان ، من ناحية الأسانيد التى ورد لنا عن طريقها ٠

ثم دار محور الفصل الثالث على دراسة واضحة لمنهج تفسير قتادة وخصائصه : وقد تحدثت فيه عن استعانة قتادة فى تفسيره للقرآن بالقرآن الكريم ، وبالحديث الشريف والحديث القدسى وبأقوال الصحابة وكبار التابعين، كما تحدثت عن تفسيره اللغوى والبلاغى ، وعن نظراته القرائية ، والفقهية، وموقفه من الناسخ والمنسوخ ، والمامه الواسع بالتاريخ القديم والديانات والنحل المختلفة ، وتحدثت كذلك عن الاسرائيليات فى تفسيره ، وعن تفسيره الوعظى والأخلاقى ، وبعض نظراته العقلية الخاصة ٠

وأهم المصادر التى استعنت بها فى عملى هـــذا : تفسير الطبرى ، ومصنف عبد الرزاق · ثم مصادر الدراسة والتحقيق ومن أهمها : طبقـات المفسرين للداودى ، طبقـــات المفسرين للسيوطى ، تهـذيب التهـــذيب ، الجرح والتعديل ، التاريخ الكبير للبخارى ، تذكرة الحفاظ للذهبى ، الأنساب للسمعانى (مخطوط مصور) ، جمهرة أنساب العرب ، وفيات الأعيان ،هدية العارفين ، طبقات العصفرى ، الطبقات الكبرى لابن سعد ، طبقات الحفـاظ للسيوطى ، النجوم الزاهرة ، مرآة الجنان ، شذرات الذهب ، خلاصة تهذيب الكمال ··· وغيرها ·

وها أنذا أقدم للعالم الاسلامى تفسيرا جليلا من تلك التفاسير المبكرة التى ضاعت من يد الزمن ، وقد جمعته لاول مرة ، وحققته تحقيقا علميا دقيقا ، وأقمت حوله دراسة عميقة ، تكشف عن خصائص التفســـير فى المراحل الاولى من حياته ، وهى مراحل كانت غامضة أمام الباحثين ، لقلة المادة العلمية عنها ·

ولا أستطيع أن أجـــد الكلمات التى تعبر عن مدى شكرى وامتنانى لاستاذى الدكتور يوسف خليف رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بكليـــة الآداب ــ جامعة القاهرة ، والذى تكرم باشرافه على هذه الرسالة ، وأمدنى بنصائحه وتوجيهاته الرشيدة ·

وأقدم أيضا خالص الشكر والاحترام للاستاذين الجليلين الدكتور عبد الله درويش عميد كلية دار العلوم ــ جامعة القاهرة والدكتور النعمان القاضى استاذ الأدب العربى والدراسات الاسلامية بكلية الآداب ــ جامعة القاهرة ، اللذين قاما بمناقشة هذه الرسالة ، وبذلا لى العـون المخلص والنصيحة الكريمة ·

وأثنى جميل الثناء على الشيخ الكريم/ حامد ابراهيم أحمد ، الذى قدم لى كافة مصادر هذه الدراسة بأكرم يد ، أثابه الله عنى وعن المسلمين خير الثواب ·

اننى فخور بهذا العمل ، وأملى كبير أن تتقبله الامة الاسلامية بالرضا والقبول ، وأدعو الله عز وجل أن يوفقنى ــ واخوانى الباحثين الاسلاميين ــ الى اتمام هذا المشروع الجليل ، مشروع احياء التفاسير القديمة الضائعة ، اعزازا للاسلام ، وتدعيما للحضارة الانسانية .

والحمد لله أولا والحمد لله آخرا ...

الحمد لله الذى افتتح كتابه بالحمد فقال جل شأنه : « الحمد لله رب العالمين » .

والحمد لله الذى افتتح خلقه بالحمد فقال سبحانه : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » .

والحمد لله الذى اختتم كل الأمر بالحمد فقال تعالى : « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » .

نحمده ونشكره الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، ونقدم هذا العمل المتواضع حسبة لوجهه الكريم ، فان يكن فيه من حسنة فمن الله ، والا فمن نفسى ، وحسبى أنى أخلصت نيتى وبذلت جهدى .

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

عبد الله أبو السعود بدر